



### قسطنطين الكبير ٣١٢ - ٣٣٧ م : CONSTANTINE

اعتزل كل من دقلديانوس وزميله مكسيميان الحكم عام ٣٠٥ فاعتلى عرش الامبراطورية القيصرية كاليريوس وقنسطنطيوس امبراطورين : كاليريوس في الشرق ، وقنسطنطيوس في الغرب. واختار كل منهما قيصرًا مساعدًا وولي عهد . الا ان قنسطنطيوس توفي بعد بضعة اشهر قبل ان يستقر تعيين القياصرة المساعدين ، الأمر الذي ادى إلى نشوب نزاع على السلطة استمر حتى ٣١٢ اشترك فيه ستة متنافسين (٢) من بينهم قسطنطين الذي عينه الجيش وهو في الحادية والعشرين امبراطورًا بعد وفاة والده قنسطنطيوس عام ٣٠٦ متجاهلين القيصر سيفيروس الذي كان هو المرشح القانوني للمنصب الا ان الامبراطور الآخر في الشرق اصر على ان يكون قسطنطين قيصرًا وان يكون سيفيروس الامبراطور في الغرب وظل قسطنطين يشغل منصب القيصر في الغرب حتى عام ٣١٢م حين تغلب على قوات ماكسيمانتيوس فسيطر بذلك على الغرب برمته فحكم كامبراطور في الغرب إلى جانب زميله ليسنيوس الذي اعتلى حكم الشرق عام ٣١٣م (٣) .

اصبح موقف الاباطرة من الجماعات المسيحية منذ هذا العصر ، وما بعدها يشكل ابرز محاور سياستهم . ففي عام ٣١١ اعلن الامبراطور كاليريوس

(1) Haywood, Op. cit. p.555.

(2) Betten, Op. cit. p.558.

(3) Haywood, Op. cit. p. 558.

الذي عرف باضطهاده للمسيحية ، تشريعاً في نهاية حكمه اعتبرت المسيحية الديانة الرسمية للدولة لأول مرة . وكان قسطنطين من المتعاطفين مع المسيحيين برغم انه لم يكن مسيحياً فاتفق مع زميله ليسنيوس عام ٣١٣ على إعلانهما اتفاقية ميلان ، والتي اتفقا فيها على اتباع سياسة التسامح مع المسيحيين ومنحهم الحركة الكاملة . الا ان ليسنيوس لم يلتزم بهذا الاتفاق فكان هذا إلى جانب امور اخرى السبب الذي ادى إلى اشتعال الحرب بين الامبراطورين وكانت تلك حرباً بين انصار المسيحية وانصار الوثنية انتهت بانتصار قسطنطين وانصاره في معركة خلقدونية عام ٣٢٤ التي أصبح قسطنطين بعدها الحاكم الوحيد للامبراطورية الرومانية .

تمثل فترة حكم قسطنطين بداية حقبة جديدة في تاريخ الامبراطورية تختلف في جميع جوانبها عن الحقب السابقة بحيث يمكن القول إنها تمثل فترة جديدة عرفت بالتاريخ البيزنطي .

وكان من أبرز الاعمال العمرانية لقسطنطين بناؤه مدينة القسطنطينية في موقع بيزنطة الأمر الذي كان يعني نقل العاصمة نحو الشرق ، كانت لدى قسطنطين عدة اسباب دفعته لتحويل العاصمة إلى الشرق منها (١) :

- ١ - كان جمهور روما المضطرب لا يزال متعلقاً باسم النظام الجمهوري القديم وان إيجاد مدينة شرقية جديدة بعيدة عن التقاليد الجمهورية قد يوفر موطناً جديداً للملكية الشرقية الجديدة التي استحدثت مؤخراً (٢) .
- ٢ - يذكر قسطنطين في احد نصوصه بأنه شيد المدينة بأمر الرب وربما كان ذلك احياء لذكرى انتصاره على ليسنيوس ذلك الانتصار الذي منحه له الرب قرب بيزنطيوم ولذلك لم تمارس في القسطنطينية طقوس دينية وثنية بل تضمنت عدداً كبيراً من الكنائس (٣) .

(١) عن هذه الاسباب راجع Betten, Op. cit. p. 561.

(2) Haywood, Op. cit. p. 560.

(3) A. Jones, The Decline of the Ancient world (London, 1966) p. 49.

٣ - توسط القسطنطينية بين الجبهتين المثيرتين للقلق ، الدانوب والنهرات يجعلها اكثر ملائمة من روما للاشراف على حماية حدود الامبراطورية.

٤ - ان وقوع العاصمة الجديدة على طرق المواصلات بين اسيا واوربا وبين البحرين الاسود والمتوسط يكسبها اهمية تجارية واقتصادية بحيث يمكنها ان تستوعب عدداً من السكان اكثر مما تستوعبه روما وقد ترتب على انتقال العاصمة نحو الشرق نتائج مهمة منها ان المدينة انشئت في بيئة تسودها الثقافة الاغريقية واللغة الاغريقية فسادت تلك الثقافة الامبراطورية الرومانية وسرعان ما اصبحت اللغة الاغريقية لغة الدولة فضلاً عن الديانة المسيحية التي اصبحت الديانة الرسمية للدولة وبذلك يمكن القول ان انتقال العاصمة نحو الشرق شكل انقلاباً كبيراً في جميع جوانب الحياة الرومانية . وتضاءلت اهمية روما منذ ذلك التاريخ . فعلى الرغم من استمرارها عاصمة للجزء الغربي من الامبراطورية الا ان التركيز كان على الشرق وعاصمته بحيث تحولت روما تدريجياً إلى مركز ديني ومقر البابوات وفقدت دورها السياسي كما اصبحت هدفاً سهلاً لغزوات البرابرة حيث تمكن القوط من محاصرتها عام ٤١٠ وانسحبوا عنها بعد دفعها الجزية . ونتيجة لابتعاد الغرب عن السلطة المركزية فقد تكونت عدة كيانات سياسية فأنشأ القوط الغربيون مملكة لهم في جنوب فرنسا وشمال اسبانيا إلى جانب دويلات اخرى للوندال والفرنج . كما ظهرت في القرن الخامس قبائل الهون المغولية فاجتاحت اوربا بشكل عنيف وهددت روما الا ان قوتها انتهت بموت قائدها عام ٤٥٣ م . ونهبت روما من لدن الوندال عام ٤٥٥ ثم سقطت على يد احد قادة القبائل الجرمانية وبذلك خلع اخر امبراطور فيها ، واصبحت بعد ذلك ولاية من ولايات الامبراطورية الشرقية .

## الفصل الرابع

### بعض أوجه الحضارة الرومانية

#### المجتمع الروماني

كان المجتمع الروماني مجتمعاً طبقياً ، طبقاته منعزلة عن بعضها ، ونظرياً على الأقل كان هذا المجتمع يتكون من طبقتين رئيسيتين : طبقة الأحرار وطبقة العبيد ، الأولى تتمتع بكافة الحقوق والامتيازات ، والطبقة الثانية لا تتمتع بأية حقوق أو ضمانات وكان ينظر اليهم كقطيع من الحيوانات المتوحشة يخضعون لمشية سيادهم يستطيع ان يقتل من يشاء منهم ويستخدم من يشاء كيفما اراد (١) .

وكانت طبقة الأحرار تنحدر من بطون (gens) وهذه تؤدي دوراً مهماً في المجتمع الروماني ، وكل بطن يضم عدداً من الأسر (Familiae) ويرأس كل أسرة رب الأسرة (Pater Familiae) وكان لكل بطن من البطون طقوسها الدينية Sacra الخاصة بها ولها مقدساتها ، ويتبع البطن الاتباع أو الموالي (Clients) وكان هؤلاء يشاركون في الطقوس الدينية للبطون ولهم بعض الحقوق التي يتمتع بها أعضاء البطن من الأسياد (٢) وكانت البطون الأرستقراطية تفخر بنسبها الذي كان يرجع الى مؤسس يحاط عادة بالتكريم سواء كان بشراً أم إلهاً ، فكانت عشيرة يوليوس مثلاً (gens) Julia والتي كان ينتمي اليها يوليوس قيصر ترجع الى الالهة فينوس (Venus) عمن طريق اينياس وبريام ملك طروادة ، وعلى الرغم من ان العشائر لم تلعب دوراً رسمياً في السياسة الرومانية إلا

انها كانت من الناحية العملية ذات وزن كبير ، كما ان الزواج بين بطون من النبلاء وسيطرة هذه البطون على الدولة في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد تعنيان ان عدداً قليلاً من الاسر العظيمة كانت تسيطر على روما (١) : كما ان بين الاحرار كانت هناك اختلافات واضحة وعميقة فهناك المواطنون الرومان الذين يحميهم القانون وغير المواطنين الذين كانوا خاضعين للقانون فضلاً عن ان سكان روما من الاحرار كانوا مصنّفين بسلم اجتماعي تتحكم به ثرواتهم (٢) .

وفي العصر الجمهوري كان القانون يقسم الاحرار الى طبقتين متميزتين : الشرفاء (honestiores) والعامّة (humiliores) ويلقبون ايضاً plebeii او (tenuiores) و ينتسب للطبقة الاولى الشيوخ الرومان والفرسان مع عوائلهم وكذلك الجند ولواحقهم مع اطفالهم وكذلك الرجال الذين يكلفون بأعمال مدنية فسي المدن والقرى خارج روما مع اولادهم . على حين يتبع بقية المواطنين الطبقة الثانية - العامة - وفي حالة تمكن احد افراد الطبقة العامة من الحصول على ثراء واسع او مؤهلات تؤهله للخدمة العامة - اي تولي وظيفة لدى الدولة - يتحول الى الطبقة الاولى (٣) .

وعند مخالفة احد افراد الطبقة العامة للقوانين فانه كان يتعرض الى اقسى العقوبات والاذلال فقد يرسل الى المناجم للعمل فيها او يرمى للوحوش في حلبات الملاعب او يصلب . اما المنتمون الى الطبقة الشريفة فكانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة وفي حالة اساءتهم للقوانين واقترافهم جرماً فانهم كانوا يجنبون اية عقوبة فيها مساس بكرامة الطبقة التي ينتمون اليها ومكانتها فسي اعين الناس ، واقسى العقوبات التي يمكن انزالها بهم هي الابعاد عن روما او النفي خارج ايطاليا او مصادرة املاكهم (٤) .

(١) دونالد . دودلي ، م . س . ص ٢٣ - ٢٤ .

(2) Carcopino, op. cit. p.65

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(4) Carcopino, pp. 65-6.